الغلاف

خليل حرب
Khalilharb66@gmail.com

"كتائب القسّام" ملهمها سوري منذ الثلاثينات "حماس" من هي؟ وكيف صعدت؟

انصبت انظار العالم على حركة حماس الفلسطينية التي شنت في 7 تشرين الاول 2023 الهجوم الاكبر من نوعه على مواقع الاحتلال والمستوطنات المحيطة بقطاع غزة، محدثة زلزالا في ثقة اسرائيل بنفسها، واعادت الحركة بذلك الاهتمام بتاريخها، ونشأتها، ودورها في الصراع مع اسرائيل

يربط البعض بشكل ملتبس نشوء حركة حماس (وهي اختصار لحركة المقاومة الاسلامية) بالشيخ عزالدين القسام الذي قتلته قوات الاحتلال البريطاني في فلسطين في العام 1935، في حين ان الحركة تأسست في الواقع في العام 1987 من الشيخ احمد ياسين الذي كان وضع النواة الاولى لذلك من خلال "المركز الاسلامي" الذي هو مثابة جمعية خيرية دينية واجتماعية الاهداف في العام 1973.

اذا كانت حركة حماس ترتبط فكريا وعقائديا بجماعة "الاخوان المسلمين" التي اسسها حسن البنا في مصر في العام 1928، ثم اقامت لنفسها مركزا في القدس خلال مرحلة الانتداب البريطاني، فان مبادئ حماس القتالية فيما يتعلق بواجبها "الجهادي"، تبدو مستوحاة او متأثرة بوضوح بمسيرة وارث عز الدين القسام، اذ من الشائع حول جماعة الاخوان المسلمين نفسها انها لم تشارك بفعالية في مقاومة الاحتلال الاسرائيلي عندما احتل الضفة الغربية وقطاع غزة خلال عدوان العام 1967، ما طرح الكثير من الشكوك والتساؤلات حول الجماعة التي كان تفضل التركيز على الاصلاح المجتمعي والديني.

النأي بالنفس هذا من جانب جماعة الاخوان، كان يتعارض بشكل واضح مع فرع الجماعة الفلسطيني، اي حركة حماس التي تأسست لاحقا، حيث شاركت الحركة بشكل مهم في الانتفاضة الفلسطينية العام 1987، وتبلور جناحها العسكري "كتائب القسام" تدريجا، وتطور منذ ذلك الوقت، ليتمتع بقدرات اتاحت له في ذروته الان القيام بعملية "طوفان الاقصى" التي الحقت اذى هائلا باسرائيل وقواتها واستخباراتها ومستوطنيها في 7 تشرين الاول 2023.

"كتائب القسام".

رهما من خلال اقتباس اسم "القسام"

طابع الشيخ عزالدين القسام.

وسيرته، يمكن فهم جذور الفكر الجهادي الذي تبنته حركة حماس، ذلك ان عزالدين القسام، الذي ولد في سوريا الكبرى وتحديدا في مدينة جبلة، بالقرب من اللاذقية، نشأ مبكرا على معاداة المحتلين، وساعدته تنشئته في عائلة مهتمة بالامور الشرعية على اكتساب خلفية دينية فقهية لعمله الجهادي، وهو فكر عززه ايضا بالتحاقه بالجامع الازهر الشريف في القاهرة.

قادته افكاره الثورية هذه الى محاولة الوقوف في وجه الفرنسيين عندما احتلوا الساحل السوري خلال الحرب العالمية الاولى، لكنه اضطر الى التسلل الى دمشق هربا منهم. ولما احتل الفرنسيون دمشق، لجأ الى حيفا. لكنه عبر لفترات مختلفة الى اسطنبول وبيروت وصيدا وعكا، قبل ان يستقر في فلسطين التي شكل فيها، بعد استعدادات سرية عقائدية وفكرية

وتدريبية، ما سمي بـ"العصبة القسامية"، قبل ان يتم التضييق عليها من جانب البريطانيين الذين كان يصفهم بانهم رأس الداء والبلاء، فيلجأ عزالدين القسام الى جنين، ويحاصر ثم يقتل.

لم يكن موت القسام عبثيا، ذلك ان اثار خطبه الحماسية والتحريضية في حيفا وغيرها قد فعلت فعلها بين الناس، سواء بتشجيعه الناس على استشعار خطر الوجود البريطاني في البلاد، بما في ذلك تمهيدهم الارض لصالح الهجرة اليهودية تطبيقا لـ"وعد بلفور" الشهير، وبالتالي ضياع فلسطين، او من خلال التصدي لتغلغل اليهود المهاجرين وعصاباتهم في المجتمع الفلسطيني المتنوع اسلاميا ومسيحيا ويهوديا.

ولهذا لم يكن مفاجئا انه بعد مقتله بعام، وتحديدا في العام 1936، اندلعت ما يعرف بالثورة الفلسطينية الكبرى. كما لم يكن مفاجئا ان القسام حاول قبل ذلك بكثير ايضا العمل والتعبئة للتصدي للغزاة الايطاليين عندما حاصروا ليبيا لاحتلالها في العام 1911. ولم تكن افكاره تقتصر على ذلك، اذ انه عرف بهمته ونشاطه لمساعدة الفقراء، وكان مثلا يوجه انتقادات للسلطات الدينية التي تبالغ في الاسراف على تزيين المساجد بدلا من شراء السلاح من اجل المقاومة، كما نسب اليه انه كان يدعو الى ايلاء الاولوية لشراء السلاح بدلا من اداء فريضة الحج.

ربما لذلك، تبدو ملامح شخصية عزالدين القسام وسيرته ملائمة تماما لحركة فلسطينية ناشئة لكي تقتبس اسمه من اجل جناحها العسكري، وان تعلن معارضتها لاحقا لما عرف باسم "اتفاقية اوسلو" التي ابرمتها منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات مع اسرائيل في العام 1993، وابقت على خيارها المقاومة المسلحة، ما وضعها بصدام مع السلطة الفلسطينية التي اعلن قيامها ومقرها في رام الله.

منذ تأسيسها، قدمت حماس العشرات من كبار قادتها، بمن فيهم المؤسس الشيخ احمد ياسين نفسه بغارة اسرائيلية في العام 2004، لكن عملية الاغتيال التي اثارت قبل ذلك اهتماما كبيرا باسم حماس، هي عملية اغتيال القيادي يحيى عياش في العام 1995، الذي كان يوصف بانه "مهندس العمليات الاستشهادية"، وايضا لاحقا اغتيال عبدالعزيز الرنتيسي في العام 2004.

كان على حماس خوض اختبار كبير اخر عندما وضعت فعليا امام امتحان ممارسة السلطة في العام 2006، بعدما فازت في الانتخابات الفلسطينية العامة، واصبحت الحكومة المسؤولة عن ادارة قطاع غزة، وذلك بعد عام على الانسحاب الاسرائيلي من غزة في العام 2005، الى ان تفاقمت خلافات حماس مع حركة فتح في العام 2007، والتي تحولت الى اشتباكات مسلحة، افضت الى سيطرة حماس بالكامل على قطاع غزة، ما اثار مخاوف واسعة من انقسام فلسطيني لم يعرف من قبل، حيث صارت الخصومة واضحة بينها وبين السلطة في رام الله بقيادة محمود عباس، المتمسك بـ"اتفاق اوسلو" وبالتعاون والتنسيق الامني مع سلطات الاحتلال، والمتهم ايضا من جانب العديد من الفلسطينيين بالتضييق على المقاومة في الضفة الغربية وغزة.

يقول مراقبون ان هذا الشقاق الداخلي اضعف الموقف الفلسطيني بشكل عام، خصوصا امام اسرائيل التي، مع هيمنة حماس في غزة، وهشاشة موقف حكومة رام الله، اطلقت العنان لادواتها العسكرية والسياسية والامنية لتهميش سلطة محمود عباس (من دون السماح بسقوطه بالكامل) سواء بالتضييق المالي او التوغلات العسكرية في مناطق السلطة الفلسطينية، وتنفيذ اغتيالات وجرائم قتل بالجملة، وفي الوقت نفسه، ضرب مقومات بقاء غزة ككيان فلسطيني وايضا كسلطة تمثلها حركة حماس، فشهد القطاع حصارا منذ ◄

حجم حماس وسلاحها

يقدر عدد مقاتلي "كتائب القسام" بحوالى 15 الف مقاتل ميداني، بالإضافة الى قوات احتياط اخرى، تقدر بالالاف.

وهي ايضا تمتلك مخزونا كبيرا بالالاف من الصواريخ مثل "القسام" و"الفجر" و"القدس"، التي صار بعضها يصل مداه الى مئات الكيلومترات. وتمتلك ايضا الطائرات المسيّرة المستخدمة لاغراض الاستطلاع والهجوم.

مؤسس حماس الشيخ احمد ياسين.

◄ العام 2007، صار يوصف الان بانه جعل من غزة "السجن المفتوح الاكبر في العالم"، حيث لا مطار ولا ميناء ولا قطارات تربط فلسطينيي القطاع بالعالم، ولا حتى من اجل التجارة.

ربما لذلك، ولاسباب عديدة اخرى، كان على غزة، وحماس وغيرها من فصائل المقاومة بما فيها حركة الجهاد الاسلامي السعي من اجل البقاء. طورت الحركة قدراتها العسكرية تدريجيا، وتعرضت لسلسلة من الاعتداءات الاسرائيلية التي اودت بحياة الاف الغزيين، من بينها عمليات "الرصاص المسكوب" (2008)، ثم عدوان "عمود السحاب" (2012) ثم "الجرف الصامد" (2014)، ثم "صيحة الفجر" (2019)، ثم "حارس الاسوار" (2021)، ثم "الفجر الصادق" (2022).

لم تكن حماس قد ولدت عندما اجبرت المنظمات الفلسطينية على الخروج من بيروت بعد الغزو الاسرائيلي العام 1982، لكنها ايضا عانت لاحقا من اشكاليات العمل من الشتات. فبعدما تمركزت قيادتها الخارجية لسنوات طويلة في دمشق التي امنت لها الحماية والايواء والتدريب والتسليح، تعرضت سوريا الى ضغوط غربية واميركية تحديدا من اجل طرد

محمد الضيف القائد العسكري لحماس الذي حاولت اسرائيل اغتياله مرات عدة.

قيادات المقاومة الفلسطينية من الاراضي السورية (بما في ذلك اللقاء الشهير لوزير الخارجية الاميركي الاسبق كولن باول حيث طرح مطالب للرئيس السوري بشار الاسد في العام 2003 بعد اسابيع قليلة على احتلال بغداد)، الا ان دمشق قاومت هذه الضغوط، وكان موقفها للموفدين الغربيين مفاده انه هؤلاء سيغادرون ما ان تصبح ارضهم في فلسطين محررة ليعودوا اليها.

النكسة ان صح التعبير للنشاط الحمساوي في الخارج، تمثلت في تورط قيادات من الحركة في الاحداث الدموية التي شهدتها سوريا في ما بعد العام 2011، حيث ثبت للسلطات السورية وصول اسلحة ووسائل تدريب بل وحتى مشاركة في صفوف جماعات مسلحة في المناطق التي فقدت الحكومة السورية السيطرة عليها لفترات متفاوتة من الزمن، فخرجت بعدها قيادات حماس من العاصمة السورية واستقر العديد منهم في قطر وفي تركيا. لكن "محور المقاومة" سعي تدريجيا الى رأب هذا الصدع الداخلي في صفوفه باستعادة حماس تدريجا الى حضنه، بما في ذلك تصحيح العلاقات الحمساوية مع دمشق، كما طورت ايران مع حماس علاقات دعم متنامية.

بالاجمال، رغم وجود "اتفاق اوسلو"، ترفع حماس شعارات اساسية تتمثل تحرير فلسطين من الاحتلال الاسرائيلي، واقامة دولة فلسطينية مستقلة وعاصمتها القدس الشرقية، كما تنادي بالاضافة الى ذلك بتطبيق الشريعة الاسلامية في فلسطين. وهي بالرغم من مسؤوليتها عن حياة اكثر من مليوني فلسطيني في غزة، مطوقين بجدار اسمنتي من حوله وحصار فعلي، الا انها ايضا تواجه بعزلة وعقوبات غربية حيث تصنف كمنظمة ارهابية من جانب الولايات المتحدة مثلا، تفاقم من الاوضاع المعيشية والحياتية لفلسطينيي القطاع، وهي بالتالي ليست قادرة على الصمود، لولا الدعم الذي تتلقاه من قطر وايران تحديدا، والتعاطف الذي تلقاه من حركات وقوى اسلامية حول العالم.

طائرة مسيرة تابعة لحماس.

حماس والجهاد

علاقة حركتي حماس والجهاد الإسلامي متعددة الابعاد، وتتميز بمزيج من التعاون والتنافس، وهما تلتقيان على هدف تحرير فلسطين من الاحتلال واقامة الدولة المستقلة وعاصمتها القدس، كما تلتقيان من خلال غرفة العمليات المشتركة لفصائل المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة، وتنسقان في احيان كثيرة عمليات اطلاق الصواريخ في اتجاه المواقع الاسرائيلية.

لكن من المعتقد ايضا، ان حماس تتمتع بشعبية اكبر في قطاع غزة، بينما ان حضور الجهاد الاسلامي في الضفة الغربية اكبر منه في غزة. ورغم المنافسة بينهما، الا ان شراكتهما في مواجهة الاحتلال تبقي صفوفهما متقاربة عادة.